

# اعتباطية العلامة اللغوية بين الدليل الاصطلاحي والطبيعي

الأستاذة / عليّة بيبية

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية

المركز الجامعي تبسة

## ملخص البحث:

تعرض الباحث اللغوي، الكثير من المسائل التي ثار حولها الجدل بين اللغويين العرب والغرب على السواء، من بينها مسألة الاعتباطية التي تنبثق عن العلاقة بين الدال والمدلول، التي هي في نظر البعض غير معللة، ولعل مرجعية هذا الرأي وليدة الاختلاف القائم حول نشأة اللغة أهي وقف أم اصطلاح.

من خلال هذه المرجعية أحاول من خلال هذا البحث، التعريف بهذا المصطلح، ومدى فاعليته في العلامة اللسانية عند العرب كبداية، وعند الغرب كتطبيق لأفرد بعد ذلك مناقشة هذه المسألة في اللغة العربية، أهي قصدية ؟ أم اعتباطية ؟

## RESUME

Cette étude prend en compte le sens arbitraire entre le signifiant et le signifie et leur relation linguistique. Atravers cette relation nous notification allons essayer de difinir ce terme et son efficacite dans la linguistique entre les arabes et les occidentaux.

## تمهيد

تتميز اللغة الإنسانية بخصائص تنفرد بها عن باقي العلامات الغير لغوية الأخرى، وهي العلاقة التلازمية بين اللفظ والمعنى، هذا المعنى الذي يتشكل في العقل فيغدو مفهوما، ثم ينتقل إلى النفس، فيصبح انطباعا وأثرا نفسيا، الأمر الذي يجعلنا نؤكد على هذه العلاقة بين الدال

والمدلول، لكن السؤال المطروح، ما طبيعة العلاقة بينهما أو بصيغة أخرى هل هناك أسباب لاختيار لفظ دون سواه لمعنى معين؟

يستدعي هذا التساؤل مناقشة مسألة الاعتبارية البديل والمدلول فما معنى الاعتبارية، وهل حققت فاعليتها على جميع الظواهر اللغوية أم تحولت العلامة اللغوية إلى قصدية بحكم الصلة الوثيقة بين طرفيها؟

انطلاقاً من هذه الإشكاليات سأتناول بالدراسة ماهية هذا المصطلح، ومظاهره الطبيعية والاصطلاحية ومدى مصداقيته بالنسبة للغة العربية.

## 1- تعريف الاعتبارية:

أ- لغة: جاء في لسان العرب مادة «عبط» ما يلي:

«عبط الذبيحة يعبطها عبطاً، واعتبطها اعتباطاً: نخرها من غير داء ولا كسر، وهي سميعة فتية، واعتبط مؤمناً قتلاً أي قتله بلا جناية كانت منه، وكان من مات بغير علة فقد اعتبط وفي الحديث: من قتل مؤمناً فاعتبط بقتله لم يقبل الله منه مصرفاً ولا عدلاً»<sup>1</sup>

ب - اصطلاحاً: الاحتباط في اصطلاح اللغويين العرب- هو الحدث الذي ليس له علة أو سبب ظاهر والاعتباطية عند علماء الكلام واللغويين هي عدم المناسبة بين الاسم والمسمى ليس له علة، يقال حذف اعتباطي أي حذف بغير علة "أو سبب ظاهر - أو أنها ترجيح بدون مرجح. أما عند الغرب فيعرف دوسوسير مصطلح اعتباطي **Arbitraire** بأنه كلمة تدل على الرابط الذي يجمع الدال بالمدلول الألسنيين وهذه الصفة تشير أن لا علاقة سببية بينهما، وإن وجد من شيء فهو علاقة غير مبنية ولا معللة<sup>2</sup>.

من خلال هذه التعاريف نلاحظ أن هناك مناسبة بين التعريف اللغوي والاصطلاح، فكل من التعريفين يركز على العلاقة غير المعللة بين الشيء ومسماه، ذلك لأن من شروط المصطلح: «إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد منه وذلك لمناسبة بينهما»<sup>3</sup>.

## 2- أدلة الاعتبارية بين الوضع الطبيعي والاصطلاحي:

أ- عند العرب: لقد تناول عدد غير قليل من علماء اللغة العرب القدامى فكرة الاعتبارية في العلامة اللسانية، وذلك عند تعرضهم للدلالة الاصطلاحية أو الصرفية منهم الاسفراييني وابن سيده والجرجاني، ولنا أن نستدل ببعض منها مع التعقيب.

قال الاسفراييني: «إن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها، إذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى، ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الاسم، ويجوز تغييرها، فالثوب يسمى في لغة العرب باسم وفي لغة العجم باسم آخر، ولو سمي الثوب فرسا والفرس ثوبا ما كان ذلك مستحيلا»<sup>4</sup>. ويقول عبد القاهر الجرجاني:

«مما يجب إحكامه أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لما بمقتضى ذلك رسماً في العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد»<sup>5</sup>. إن نص الاسفراييني يركز على عدم فصل الأسماء ومدلولاتها، فالاعتبارية عنده كامنة في اختلاف لغات الاسم، ذلك أن كل لغة من اللغات تتميز عن غيرها بخصائص معينة وقد ضرب لنا مثالا حول الثوب واختلاف اسمه بين العرب والعجم: «فاللغة إذن مجموعة من العلاقات الثنائية القائمة بين جملة العلامات المكونة لرصيد اللغة ذاتها»<sup>6</sup>، فلكل لغة رصيدها وسياقها الخاص، وترجمتها تكون غالبا بالمعنى وليس اللفظ.

أما نص الجرجاني فيركز على نظم الدوال إي الصور السمعية من حيث انسجامها في النطق وابتعادها عن الغريب، فهو إذن يركز على اعتبارية الدال ما لم يقترب بمعنى، ودليله على ذلك قوله «وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس»<sup>7</sup>.

فكلما كان الدال واضح الدلالة اتضح معنى المدلول تبعاً للسياق، وهنا ينتفي طابع الاعتبارية إذا اقترن الدال بمدلوله بدلالة معنى معين، ولنا أن نضيف تعقيب محمد يونس علي على نص عبد القاهر حيث يقول فيه: «ما يفهم من كلامه هذا أنه ليس هناك باحث يدعو إلى اختيار أصوات ما لمدلول ما، كما أنه ليس هناك في المدلول ما يدعو إلى ترتيب تلك

الأصوات على نحو ما، فإذا تم اختيار أصوات معينة للمدلول ما ورتبت ترتيباً معيناً ووضعت لأزاء معنى على نحو اعتباطي أصبح ترتيب الألفاظ وهي المظهر الخارجي للعلامة يسير بحيث تسير المعاني التي هي المظهر الداخلي للعلامة، وهو ما يقتضيه مفهوم التركيب في العلامة» 8.

والحق أن فكرة الاعتباطية قامت على أنقاض القائلين بطبيعة العلامة اللسانية، وأشهرهم من العرب عباد بن سليمان الصيمري الذي يقول: «الألفاظ تدل على المعاني بذاتها»، ثم يقول: «وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً»، وكان بعض من يرى رأيه يقول: «إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فستل ما معنى لفظة أذغاغ وهو بالفارسية الحجر فقال: أجد فيه ينسا شديداً وأراه الحجر» 3.

فصفات الأصوات بالنسبة لهذه اللفظة هي المعيار الذي يوحى بنوعها وهو اليبس الشديد، وهذا ما تجسده القيمة التعبيرية للصوت الذي يقوم على مبدأ المحاكاة الصوتي، وهي ظاهرة ملحوظة في اللغة، وفيها يقول ابن جني: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج ملتب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجهلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها فيعدلونها بها، ويحتذون عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستسعره، من ذلك قولهم خضم، قضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء، وما كان من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليبس نحو قضمت الدابة شعيرها» 10.

وقد رد أنصار الاعتباطية على مبدأ المحاكاة بأنها «كانت قائمة على التوهم بمعنى أن ما يسميه فلان من صوت ما من الطبيعة يبدو له بشكل مختلف عما يبدو لشخص آخر، وهذا ما يجعل محاكاة كل منهما لذلك الصوت مختلفة، ويمكن إرجاع ذلك الاختلاف إلى أسباب نفسية» 11

فالمحاكاة موجودة في اللغة ولكن وجودها محصور في نطاق ضعيف جداً 12.

ب- عند الغرب: لقد أثارت مسألة الاعتباطية الكثير من الجدل بين علماء اللغة الغربيين فخص منهم دوسويسير وبنفست. فدوسويسير يعتقد اعتقاداً حاسماً أن العلامة تنشأ من علاقة اعتباطية بين دالها ومدلولها، ويقصد بذلك أن «الدال لا توجد بينه وبين مدلوله علاقة معللة وإنما يمثل الدال اختياراً صوتياً جزافياً تواضع عليه أهل اللغة الواحدة للدلالة به على مدلول معين فهو مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية

يقول: وهكذا فإن فكرة "أ خ ت" لا ترتبط بأي علاقة داخلية مع تتابع الأصوات "أ خ ت". ثم يقدم الحجة على صحة هذا الاعتقاد فيقول: وحجتنا في ذلك إنما هي الاختلافات القائمة بين اللغات، ووجود اللغات المختلفة ذاته»<sup>13</sup>

وتأكيد دوسوسير لمبدأ الاعتباطية يعود لأسباب منها:

- أن مبدأ الاعتباطية يقوم على مبدأ المواضعة، بل هو قرينه الذي لا يفارقه، ويراد بالمواضعة ذلك العقد الذي يتفق فيه أفراد المجتمع الناطق باللسان الواحد على ما يتم استعماله من وحدات وعبارات يداولونها في تواصلهم اللغوي.

- انه يساعد على ثبات اللغة، وذلك لأن الاعتباطية تمنع الفرد من تغيير أي شيء في العلامة اللغوية، ولو كانت العلاقة بين طرفي العلامة معللة لكانت محاولة الفرد في تغييرها بوعي وإرادة أمراً ممكناً<sup>14</sup>.

- ويوافق الأستاذ منقور عبد الجليل دوسوسير في مبدئه، ويبين لنا الجوانب الإيجابية للاعتباطية ومن بينها

- إن الاعتباطية التي هي الاقتران العرفي بين الدال والمدلول، تعتبر الخلية الحوية التي تشرف على عملية التوالد الداخلي في اللغة، إذ يتم استحداث تراكيب وصيغ لغوية جديدة في صلب اللغة وابتكار مدلولات لها ذلك أن الألفاظ تمتلك من المرونة ما يمكنها من عبور المجالات الدلالية باعتماد معيار النقل الدلالي.

- الدلالة تكون قابلة للتوسع كلما كانت العلة مختفية غير معروفة ذلك أن الارتباط القسري الذي جمع الدال بمدلوله كان في البدء عن طريق علة جوهرية هي التي أعطت لهذا الارتباط مرونة بحيث يحدث امتداد في المجال الدلالي للفظ، فيجب على العلة أن تختفي لمصلحة المعنى، أما إذا حدث العكس فإنها ستفصل المعنى وتقدمه<sup>15</sup>

أما بنفسنت فيعتبر العلاقة ضرورية بين الدال والمدلول، فمفهوم "ثور" كما يقول إجباري في ضميري للمجموعة الصوتية "ث و ر" كيف لا فالاثنان رسخا في فكري، والاثنان يستعاد ذكرهما في كل الحالات بحيث يوجد تكامل عميق بينهما، حتى أن مفهوم "ثور" يمكن اعتباره كروح للصورة السمعية "ث و ر"<sup>16</sup>.



فبنفست في نصه هذا يؤكد على العلاقة التلازمية بين الدال والمدلول، ويرجع أسباب هذه العلاقة إلى الوجهة الفكرية والنفسية للفرد المتكلم.

الملاحظ على هذه الأدلة أن أصحابها اختلفوا حول اعتبارية الدال والمدلول انطلاقاً من مرجعية هامة، وهي نشأة اللغة أهي وقف أم اصطلاح، لكن هذا المبدأ لا يمس كل الوحدات في لغة ما، بل تبقى صورته بين النسبية المطلقة، ولنا أن نستدل بنسبتيها في اللغة العربية التي تتميز بخصوصيات تجعلها قسرية أكثر منها اعتبارية، عن طريق مجموعة من الآراء:

1- إن هناك استثناء لقاعدة دوسوسير حول الاعتبارية لأن اللغة العربية لغة القرآن الكريم هذا القرآن المعجز في ألفاظه ومعانيه فكل مفردة وضعت في سياقها الملائم لها، «ومعنى قولنا في القرآن أنه معجزة أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي أختص به» 17 قال الله تعالى «قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» الإسراء آ 88.

2- خاصية الاشتقاق الذي هو تأصيل لمفردات اللغة وهو في أدق تعريفه: «توليد لبعض الألفاظ من بعض والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد مادتها ويوحي بمعناها المشترك الأصيل مثلما يوحي بمعناها الخاص الجديد» 18. وهو أنواع منها الاشتقاق الصغير: وهو أكثر الأنواع شيوعاً في العربية، «وهو ارتباط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام وضع له، وهذا المعنى يخرج إلى حيز الوجود في كل كلمة توجد فيها الأصوات مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه» 19.

فالاشتقاق إذن مبدأ العودة إلى الأصل، أي أن هناك مجموعة من الألفاظ تتمحور حول معنى واحد وهذا يؤكد قصدية اللغة العربية.

3- الترادف: وهو أحد مظاهر الثراء في اللغة وهي ألفاظ متحدة المعنى، وقابلة للتبادل في أي سياق 20. وفي هذا السياق يقول أبو علي الفاري: «كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ إلا اسماً واحداً وهو السيف، قال ابن خالويه فأين المهندس والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي هذه صفات وكأن النسخ لا يفرق بين الاسم

والصفة» 21. إذن اسم السيف واحد والباقي صفات له أطلقت حسب مميزات معينة يتصف بها، فأطلقت صفة المهند لصنعه في الهند، والصارم لأنه يقيم الحد.

فالتوزيع السياقي لكل مفردة تختلف عن سابقتها ويصنف هذا النوع في "الترادف التام" الذي يكون قابلاً للتغيير في جميع السياقات 22. ولنا أن نستدل بآيتين كريميتين تبينان الاختلاف قوله تعالى «وبعث فيهم رسولا»، وقوله جلا وعلا «فأرسلنا فيهم رسولا» المؤمنون الآية 32 فقد فرق أبو هلال بين البعث والإرسال «بأنه يجوز أن تبعث الرجل إلى الآخر لحاجة دونك، دون المبعوث إليه كالصبي تبعثه إلى المكتب فتقول بعثته ولا تقول أرسلته، لأن الإرسال لا يكون إلا ب رسالة وما يجري مجراها» 23.

4- المجاز: إننا نجد علاقة بين الدال والمدلول عندما نطلق لفظ أسد على رجل شجاع، وهي علاقة تقوم على أساس التشابه بين ذلك الحيوان المعروف والرجل الشجاع، فالعلاقة هنا تخرج من دلالة الحقيقة إلى دلالة المجاز التي تكون فيها العلاقة بين اللفظ ومعناه منطقية، وليست اعتباطية، والتشبه والاستعارة من أصناف الأيقونة وهذه العلامة «تقوم على مبدأ التطابق والتشابه» 24، فهي ليست اعتباطية بل قصدية.

من هذا المنطلق نستخلص النتائج الآتية:

-تقتصر مسألة الاعتباطية على بعض الظواهر اللغوية كاختلاف اللغات واللهجات وهذا يتوقف على خصائص كل لغة.

-إن كل لغة قابلة للتغيير وهذا يعني ثرائها خاصة اللغة العربية الأمر الذي يقودنا إلى الاقتناع بأن مسألة الاعتباطية غير ثابتة.

إن التلازم بين الدال والمدلول يجعل لكل لفظ معنى وبالتالي نصل إلى نتيجة مفادها عدم الوقوع في فوضى اللغة.

## الهوامش

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم ط 1416 هـ - دمشق.
- 1- ابن منظور لسان العرب - دار صادر بيروت، د، ط، ت م 4 ص 245.
  - 2- يوسف غازي مدخل إلى الألسنية: منشورات العالم العربي الجامعية دمشق ط 1985 ص 64.
  - 3- عرابي أحمد، دلالة المصطلح التراثي بين الأصالة والمعاصرة - مجلة المصطلح ع 2003 الصادرة من جامعة 2 بوبكر بلقايد تلمسان ص 264-265.
  - 4- جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها تحقيق (محمد أحمد جاد المولى)، دار الفكر، د ت ص 265.
  - 5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز تحقيق: محمد التونجي دار الكتاب العربي، بيروت ط 3 1999 ص 56.
  - 6- عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية ص 30.
  - 7- عبد القادر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص 56.
  - 8- محمد محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلاليًا - منشورات جامعة الفاتح ليبيا 1993 ص 31-32.
  - 9- فايز الداية: علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق دار الفكر - دمشق ط 2 1996 ص 32.
  - 10- ابن جني: الخصائص - ت محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر بيروت د، ت، د ط - ج 2 ص 157-158.
  - 11- وصف اللغة العربية دلاليًا: ص 33.
  - 12- المرجع نفسه: ص 34.
  - 13- الطيب دبة مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية استمولوجية دار القصة للنشر الجزائر 2001 ص 79.
  - 14- المرجع نفسه ص 81.



- 15- منقور عبد الجليل: علم الدلالة ومباحثه في التراث الديني أسماء الكتاب الديني دمشق 2001 ص: 63-64.
- 16- ينظر مبادئ اللسانيات: الطيب دبة ص 80.
- 17- عمار سامي: المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم دار المعارف بوفاريك الجزائر 2005 ص 53.
- 18- رمضان عبد الثواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخارجي القاهرة ط 6 1999 ص 290.
- 19- علي عبد الواحد: في فقه اللغة- دار النهضة- مصر للطبع والنشر، القاهرة ط 6 1999 ص 178.
- 20- فصول في فقه العربية ص: 309 .
- 21- المرجع نفسه ص: 311.
- 22- وصف اللغة العربية دلاليًا ص 372.
- 23- فصول في فقه العربية: ص 317.
- 24- ينظر عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة: المركز الثقافي العربي ط 2 1996 ص: 81.